(واهتم الحكام المحليون بحماية أطراف الدولة، وقد صرفوا اهتمامهم لترميم وإعادة بناء قلاع وأسوار المدن المهدمة جراء الحروب الصليبية، كما حصل في عكا، وصفد وحيفا)[٨٠].

تجمدت الإمبراطورية العثمانية في القرنين ١٧ و١٨ وبقيت أسيرة نظام الاقطاع. فيما شهدت أوروبا بدايات نهضة واكتشافات علمية وفتوحات تجارية مركنتيلية بالذهب والفضة مهدت لثورة صناعية وعلاقات إنتاج رأسمالية ومدينة معاصرة وجيوش حديثة. وفي الوقت الذي شهدت فيه أوروبا اندلاع ثورات وولادة دول قومية تكرس نظام السلاطين وعلاقات الإنتاج الاقطاعية في الإمبراطورية العثمانية واهمال التعليم والزراعة، وهذا ما دفعت ثمنه لاحقا.

وأنشأت الدكتورة الحوت: (كان مستوى التعليم في المدارس الحكومية الرسمية متأخرا جدا... واتصف العهد العثماني، خصوصا في مرحلته الأخيرة، بالقوة والبطش)[٨١].

وأحوال الإمبراطورية العثمانية انعكست على فلسطين التي وزعت على ٥ ألوية فيما استقطع شمالها وضم لصيدا، وعانت من ضرائب باهضة وتنامي نفوذ العوائل المحلية التي لم تعرف الآستانة سياسة ثابتة حيالها، بين دعم وتقليص نفوذ تبعاً لمصالحها.

وفي أواخر القرن ١٧ انتشرت ظاهرة التسلح ومشايخ القرى المتصارعين فاشتد التنافس بين القيسيه واليمنية، وكل منهما يقيم جيوشاً تدعم تطلعاته، اضافة للقبائل المسلحة التي وسعت من سطوها على طريق المواصلات. ولوحظ تنامي دور رجال الدين والنخب الإسلامية الذين سيطروا على المحاكم الشرعية والمدارس والجمعيات الخيرية، وفي مقدمة هؤلاء عائلة الحسيني.

لا تفوتنا الإشارة إلى الهبة الشعبية بين ١٧٠٣ – ١٧٠٥م التي قادها محمد الحسيني نقيب اشراف القدس وشارك فيها الفلاحون، البدو، أهالي المدن احتجاجاً على جبروت الحكم العثماني وتقهقر الأوضاع الاقتصادية ارتباطا بعسف الضرائب والمحْل واحتباس الأمطار. وكانت الشرارة تعيين العثمانيين قنصلاً فرنسيا في القدس هو الأول منذ صلاح الدين، فاجتمعت العوائل والوجهاء والمشايخ ورفعوا مذكرة للسلطان حذرت من تسرب الفرنجة للاستيلاء على القدس... وبدأت التململات التي أفشلت التعيين.

وتواصل التمرد وتفشى في أرجاء واسعة، وقد قوبل بالضرب بيدٍ من حديد على أيدي

---

٨٠) د. الدباغ، المرجع السابق، ص٤٢

٨١) د. الحوت، مرجع سابق، ص١٣١، ١٣٢